الباب الخامس والعشرون

رومة واليهودية

١٣٢ ق . م — ١٣٥ م

الفصل الاول

پارثيا

بين بحر پنتس وجبال القوقاز تقوم جبال أرمينية ذات القلل الشمخاء التي رست عليها سفينة نوح ، كما تقول قصة الطوفان . وفى أوديتها الخفية كانت تمتد الطرق التى تصل پارثيا وأرض الجزيرة بالبحر الأسود ، ومن أجل هذا كانت الإمبراطوريات تتنافس على امتلاك أرمينية . وكان سكانها من الجنس الهندورپى يمتون بصلة القربى للحثيين والفريجيين ، ولكنهم ظلوا محتفظين بأنفهم الأناضولى . وكانوا فى الأيام الماضية شعباً قوياً صبوراً على أعمال الزراعة ، يحذق الصناعات اليدوية ، ولا يجاريه شعب آخر فى براعته التجارية ؛ استغلوا أرضهم الضنينة أحسن استغلال ، وأنتجوا من الثروة ما يكفى لأن يعيش ملوكهم معيشة الترف ، وإن لم يكسبهم الكثير من القوة والسلطان . وقد ذكر دارا الأول فى نقش بهستوم (٥٢١ ق . م) اسم أرمينية بين الولايات التابعة لبلاد الفرس ، وكانت فيما بعد تابعة تبعية اسمية لدولة السلوقيين ثم تداولتها أيدى پارثيا ورومة مراراً عدة ، ولكنها استطاعت لبعدها أن تحتفظ باستقلالها الفعلى . وكان أشهر ملوكها ترجرانس الأكبر Tirgranes (٩٤ - ٥٦ ق . م) الذى فتح كپدوكيا وأضاف إلى أرتكساتا Artaxata عاصمة ثانيـــة هى ترجانوسترا Triganocetra ،

وانضم إلى متراداتس فى ثورته على رومة ؛ ولما أن قبل بمپي عذره ، أهدى إلى القائد المنتصر ٦٠٠٠ وزنة (٢١ر٦٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) ، و١٠ر٠٠٠ درخمة (٦٠٠٠ ريال أمريكى) لكل قائد مائة ، وخمسين درخمة لكل جندى فى الجيش الرومانى . واعترفت أرمينية بسيادة رومة فى عهد قيصر وأغسطس ونيرون وأصبحت فى فترة من الزمان فى عهد تراچان ولاية رومانية . لكن ثقافتها كانت رغم هــذا ثقافة إيرانية ، وكانت ميولها فى العادة نحو پارثيا .

وكان الپارثيون قد ظلوا عدة قرون يحتلون الإقليم الواقع جنوب بحر الخزر بوصفهم رعايا الملوك الأكيمينيين ثم الملوك السلوقيين . وكان هؤلاء الپارثيون من العنصر السكوذى ــ التورانى أى أنهم من جنس الشعوب الضاربه فى الجنوب الشرقى من روسيا وفى بلاد التركستان . وفى عام ٢٤٨ ق . م خرج زعيم سكوذى يدعى أرساسيس على حكم السلوقيين ، وجعل پارثيا دولة مستقلة ذات سيادة ، وأنشأ فيها أسرة أرساسية مالكة . ولما ضعف الملوك الســلوقيون على أثر هزيمة رومة لأنتيخوس الثالث (١٨٩ ق . م) عجزوا عن حماية بلادهم من الپارثيين الهمج المتهورين ، فلم يكد يختتم القرن الثانى قبل الميلاد حتى كانت أرض الجزيرة وفارس بأكملها قد ضمت إلى الإمبراطورية الپارثية الجديدة . وكان للملوك الپارثيين الجدد ثلاث عواصم يقيمون فيها فى فصول السنة المختلفة : هكتومپيلس Hecatompylus فى بارثيا ، وإكبتانا (محل همذان) فى ميديا ، وطشقونة Ctesiphon على المجرى الأدنى لنهر دجلة . وعلى الضــفة الأخرى للنهر المقابلة لطشقونة كانت تقوم العاصمة السلوقية القديمة وهى مدينة سلوقيا التى ظلت عدة قرون مدينة يونانية فى مملكة بارثية . وقد احتفظ الحــكام الأرساسيون بالنظام الإدارى الذى أقامه السلوقيون ، لكنهم غشوه بنظام إقطاعى أخذوه عن الملوك الأكيمينيين . وكانت جمهرة الشــعب تتألف من أقنان الأرض والرقيق ؛ وكانت الصــناعة متأخرة وإن كان صاهرو الحديد الپارثيون قد استطاعوا أن يخرجوا منه نوعاً جيداً ،

وكانت « صناعة عصر الخمر تدر أرباحاً طائلة »(٢) ؛ وكان جزء من ثروة البلاد يأتي عن التجارة التي تنقل في الأنهار الكبرى ، وينقل بعضها في طرق القوافل التي تجتاز بارثيا في طريقها بين أقاصي آسية وبلاد الغرب . واشتبكت رومة مع بارثيا في حرب من سنة ٥٣ ق . م حين هزم البارثيون كراسس Crassus في كارى Carrhae إلى سنة ٢١٧ م حين ابتاع مكرينس Macrinus الصلح من أرتبانس Artabanus ، بغية السيطرة على هذه الطرق وعلى البحر الأحمر .

وكان البارثيون أغنى أو أفقر من أن يهتموا بالأدب ؛ فقد كان الأشراف ، يفضلون فن الحياة على حياة الفن كشأنهم في كل العصور ؛ وكان أقنان الأرض أميين لا يعرفون للأدب معنى ، وكان الصناع منهمكين في عملهم لا يجدون متسعاً من الوقت للاهتمام بالأدب ، وكان التجار مشغولين بتجارتهم عن إنتاج فن عظيم أو كتب قيمة . وكان الأهلون يتكلمون اللغة الفهلوية ، ويكتبون بالآرامية على الجلود ، وكانت الآرامية قد حلت وقتئذ محل الكتابة المسمارية ؛ ولم تبق لنا الأيام سطراً واحداً من الآداب البارثية ، لكننا نعلم أن المسرحيات اليونانية كانت تمثل في طشقونة كما كانت تمثل في سلوقيا ، وذلك لأن رأس كراسس قد ظهر في أحد أدوار الباخيين ليوربديز . أما الصور والتماثيل التي كشفت في تدمر ، ودور — أوربس ، وأشور فكانت في أكبر الظن من صنع الفنانين الإيرانيين ؛ وكان امتزاج الطرازين اليوناني والشرقي ذلك الامتزاج الساذج ذا أثر في فن العصور التي تلت ذلك العصر في جميع بلاد آسية من الصين إلى القسطنطينية . وقد بقي لنا نقش واضح يمثل رامياً بالسهام على ظهر جواد ، ويوحي بأنه لو بقي لنا من فن البارثيين أكثر مما عثرنا عليه منه لكان تقديرنا لهـذا الفن أعلى من تقديرنا الحالي(٣) . وقد شاد أمير إقطاعي عربي من أتباع ملك بارثيا قصراً من حجر الجير في حترا Hatra القريبة من الموصل (٨٨ ق . م ؟) يحتوي على سبعة أبهاء ذات عقود وقباب ، وشاده على طراز قوي ولكنه همجي . غير أن

أعمالا فنيه بارثية من طراز حسن قد بقيت لنا فى الأدوات الفضية وفى الحلى .

لكن البارثيين نبغوا فى الفن المحبب إلى بنى الإنسان — ونعنى به زينة الأجسام . لقد كان رجالهم ونساؤهم على السواء يعقصون شعورهم ، وكان الرجال يطيلون لحاهم المجعدة وشواربهم المتهدلة ، ويرتدى الواحد منهم قميصا وسروالا منتفخا يعلوهما فى العادة ثوب متعدد الألوان . أما النساء فكن يرتدين أثوابا مطرزة تطريزا دقيقا جميلا ، ويزين شعرهن بالأزهار ، وكان أحرار البارثيين يسلون أنفسهم بالصيد ، ويكثرون من الطعام والشراب ، ولا يمشون على أقدامهم إذا استطاعوا الركوب . وكانوا محاربين شجعانا ، وأعداء شرفاء ، يحسنون معاملة الأسرى ، ويقبلون الأجانب فى المناصب الكبرى ، ويحمون اللاجئين ، غير أنهم كانوا فى بعض الأحيان يبترون أعضاء المدنى من الأعداء ، ويعذبون الشهود ، ويعاقبون على الذنوب الصغيرة بضرب السياط . وكان من عادتهم تعدد الزوجات إذا أمكنتهم مواردهم من ذلك التعدد ، وكانت نساؤهم محجبات معزولات عن الرجال ، وكانوا يعاقبون نساءهم على الخيانة الزوجية بأقسى العقوبات ، ولكنهم يبيحون الطلاق للرجال والنساء على السواء لا يكادون يقيمون فى سبيله عقبة ما[٣] . ولما أن زحف سرينا Surena القائد البارثى بجيشه على كراسس اصطحب معه مائتى حظية وألف بعير محملة بلوازمه[٤] ؛ والصورة التى تنطبع فى أذهاننا عن البارثيين فى جملتهم هى أنهم كانوا أقل حضارة من الفرس الأكيمينيين ، وأشرف وأكرم أخلاقا من الرومان . فقد كانوا متسامحين مع من يخالفونهم فى الدين ، يجيزون لليونان ، واليهود ، والمسيحيين المقيمين بين ظهرانيهم أن يقيموا شعائر دينهم دون أن يتدخلوا فى شؤونهم . أما هم أنفسهم فقد انحرفوا بعض الانحراف عن الزرادشتية الصحيحة ، فكانوا يعبدون الشمس والقمر ، ويفضلون مثراس عن أهورا — مزدا فكانوا من هذه الناحية كثيرى الشبه بالمسيحيين

إذ يفضلون المسيح على يهوه . وقد كان لكهنة المجوس يد فى القضاء على الأسرة الأرساسية لأنهم لم يلقوا من ملوكها المتأخرين ما كانوا يتطلعون إليه من الرعاية .

ولما توفى ملكهم ڤلوجاسس الرابع (٢٠٩ م) تنازع ولداه ڤلوجاسس الخامس وأرتبانس الرابع على عرش المملكة . وانتصر أرتبانس فى هذا النزاع ثم هزم الرومان فى نزيب Nisibis . ودامت الحرب بين الإمبراطوريتين ثلاثة قرون ثم انتهت بانتصار البارثيين نصرا غير حاسم لأن سهول أرض الجزيرة كانت توائم خيالة البارثيين أكثر مما توائم فيالق الرومان . ثم تورط أرتبانس بعدئذ فى حرب داخلية لقى فيها حتفه وأعلن أردشير أو أرتحشتر الشريف الإقطاعى فى بلاد الفرس والذى غلبه على أمره ملك الملوك (٢٢٧ م) وأسس الأسرة الساسانية . وعاد الدين الزرادشتى إلى سابق عهده ، وبدأ فى بلاد الفرس عهد من أعظم العهود التى مرت بها فى تاريخها الطويل .

الفصل الثانى

الهسمونيون

انتهز سيمون مكابى فى عام ١٤٣ ق . م فرصة النزاع القائم بين البارثيين ، والسلوقيين ، والمصريين ، والرومان فانتزع استقلال بلاد اليهود من أيدى الملوك السلوقيين . واختارته جمعية وطنية قائداً وكاهنا أعلى للدولة اليهودية الثانية (١٤٢ ق . م — ٧٠ م) ، وجعلت ثانى المنصبين وراثيا فى أسرته الهسمونية ، وصارت بلاد اليهود مرة أخرى دولة دينية تحكمها هذه الأسرة أسرة الكهنة — الملوك ، ذلك أن من أخص خصائص المجتمعات السامية ارتباط السلطتين الروحية والزمنية فى الأسرة وفى الدولة لأنها تأبى أن يكون لها سيد إلا الله وحده .

وأدرك الهسمونيون ضعف مملكتهم الصغيرة فقضوا جيلين كاملين يوسعون حدودها بالدبلوماسية تارة وبالقوة تارة أخرى ، فلم يحل عام ٧٨ ق . م حتى كانوا قد ضموا إليهم السامرة ، وإدوم ، وموآب ، والجليل ، وإدوميا ، وما وراء نهر الأردن ، وجدارا ، وبلا ، وچراسا ، ورافيا (رفح) ، وغزة ، ووسعوا حدود فلسطين إلى ما كانت عليه فى عهد سليمان . وفرض خلفاء هؤلاء المكابيين البواسل الذين قاتلوا دفاعا عن حريتهم الدينية الدين اليهودى والختان على رعاياهم الجدد بحد السيف(٥) . وفقد الهسمونيون فى الوقت نفسه غيرتهم الدينية ، واستسلموا شيئاً فشيئاً لما كان فى العناصر التى ضموها إلى بلادهم من نزعة هلنستية رغم احتجاج الفريسيين(*) الشديد . غير أن الملكة شالوم اسكندرة

(*) شيعة يهودية تمتاز بتمسكها الشديد بالشرائع والأوامر الدينية ؛ وتطور معنى هذا اللفظ فى الزمن الحديث فصار يطلق على من يستمسك فى الدين بالشكل دون الجوهر أى المرائى . (المترجم)

(٧٨ — ٦٩ ق . م) عكست هذا الاتجاه ، وعقدت الصلح مع الفريسيين ، لكن ولداها هركانس الثانى ، وأرستبولس الثانى أخذا يتنازعان العرش قبل موتها ، وعرضت الطائفتان أمرهما على بمبى ، وكان وقتئذ واقفا على رأس فيالقه المنتصرة فى دمشق (٦٣ ق . م) ، فلما انتصر بمبى لهركانس تحصن أرستبولس وجيشه فى بيت المقدس ، فحاصر بمبى تلك العاصمة ، واستولى على أجزائها السفلى ؛ ولكن أتباع أرستبولس احتموا بأفنية الهيكل المسورة ، وظلوا يقاومون بمبى ثلاثة أشهر . ويقول المؤرخون إن تقواهم أعانت بمبى على هزيمتهم ، فقد شاهد أنهم لا يحاربون فى يوم سبتهم ، فأمر رجاله بأن يعدوا فى كل سبت الربا والكباش الهدامة التى سيستخدمها فى اليوم التالى ، ولم يكونوا يلقون مقاومة من اليهود فى ذلك الاستعداد ، بل كان الكهنة يقضون يومهم فى الهيكل يبتهلون ويقربون القرابين كعادتهم كل الأوقات . فلما أن تهدمت الأسوار ذبح من اليهود اثنى عشر ألفاً ، ولم يقاوم منهم إلا عدد قليل ، ولم ينج منهم أحد ، وقفز الكثيرون من فوق الأسوار فلاقوا حتفهم[٦] . وأمر بمبى رجاله بألا يمسوا ما فى الهيكل من كنوز ، ولكنه فرض على الأمة اليهودية غرامة قدرها عشرة آلاف وزنة (٣٫٦٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) ، ونقلت المدن التى كان الهسمونيون قد فتحوها من حكم اليهود إلى حكم الرومان ، ونصب هركانس الثانى حاخاما أعظم ، وحاكما بالاسم على بلاد اليهود ، ولكنه كان فى حراسة أنتباتر الإيدومينى الذى أعان رومة فى هذه الحرب . وهكذا قضى على المملكة المستقلة وأضبحت بلاد اليهود جزءاً من ولاية سوريا الرومانية .

وبينا كان كراسس فى طريقه إلى طشقونة فى عام ٥٤ ق . م — وهى الحملة التى قطع فيا رأسه وجىء به ليمثل فى بلاط ملك البارثيين دور بنيثوس فى مسرحية الباخيين — نهب ما أبقى عليه بمبى من كنوز الهيكل ، وكان يبلغ مقدارها عشرة آلاف وزنة . ولما أن جاء البشير بأن كراسس هزم وقتل

اغتنم اليهود هذه الفرصة ليستعيدوا حريتهم ، ولكن لنجينس الذى عين واليا على سوريا بعد كراسس أخمد الثورة وباع ثلاثين ألفاً من اليهود في أسواق الرقيق (٤٣ ق . م)[٧] . ومات أنتباتر فى تلك السنة ، وزحف البارثيون على بلاد اليهود مخترقين الصحراء وعينوا أنتجونس آخر الهسمونيين ملكا على البلاد يأتمر بأمرهم ويخضع لمشيئتهم . وقابل أنطونيوس وأكتافيان هذا العمل بتعيين هيرود بن أنتباتر ملكا على بلاد اليهود وأعانوا جيشه اليهودى بالأموال الرومانية . فطرد هيرود البارثيين من البلاد وحمى أورشليم من السلب والنهب ، وأرسل أنتجونس إلى أنطونيوس ليعدمه ، وذبح جميع زعماء اليهود الذين عاونوا الملك الصورى ، وتهيأت له بذلك أسباب حكم يعد من أكثر العهود إشراقا فى التاريخ (٣٧ — ٤ ق . م) .

الفصل الثالث

هيرود الأكبر

كانت أخلاقه مثالا من أخلاق عصره الذى أنجب كثيراً من الرجال الذين كانوا أذكياء لا خلاق لهم ، قادرين لا ضمير لهم ، شجعاناً مجردين من الشرف . لقد كان صورة مصغرة من أغسطس فى بلاد اليهود : فعل فيها ما فعله أغسطس فى رومة فاستبدل بفوضى الحرية نظاماً دكتاتورياً ، وجمل عاصمته بالمبانى والتماثيل اليونانية الطراز ، ووسع رقعة مملكته ، ونشر فيها الرخاء ، وكسب بالختل والسياسية أكثر مما كسبه بقوة السلاح ، وتزوج كثيراً من النساء ، وقضت عليه خيانة أبنائه ، واستمتع بكل ما يتيحه له الحظ المواتى عدا السعادة . ويصفه يوسفوس بأنه رجل قوى البأس ، عظيم المهارة ، بارع رمى السهام والحراب ، صياد عظيم اقتنص فى يوم واحد أربعين وحشاً . وكان « محارباً لا يستطيع إنسان أن يقف فى وجهه »[٨] . وما من شك فى أنه أضاف إلى هذه الصفات شخصية جذابة ، فقد كان فى وسعه على الدوام أن يتغلب بقوة الحجة أو بكثرة الرشا على أعدائه الذين حاولوا أن يشوا به عند أنطونيوس أوكليوبطرة ، أو أكتافيان . وقد خرج من كل الأزمات التى حدثت بينه وبين الحكومة الثلاثية فى رومة وهو أقوى سلطاناً وأوسع ملكا مما كان ، وسرعان ما اقتنع أغسطس بأن له « روماً أعظم من أن تسعها أملاكه الصغيرة » ، فأعاد إلى مملكته مدائن فلسطين الهسمونية ، وتمنى لو أن هيرود قد حكم سوريا ومصر بالإضافة إلى أملاكه[٩] . ولقد كان « الإديومى Idumean » رجلا كريماً خلا قلبه من الرحمة ، أفاء على رعاياه من النعم ما لا يعادله إلا ما أصابهم به من الأذى .

ولقد كان من العوامل التى شكلت أخلاقه ، ما كان يضمره له الذين غلبهم

على أمرهم أو قتل أهلهم من بغض شديد ، وما يكنه له الشعب الممتعض من طغيانه والمشمئز من أصله الأجنبي من عداء واحتقار : وقد ارتفع إلى العرش بمساعدة رومة وأموالها ، وبقى إلى آخر عمره صديقاً وخاضعاً للسلطة التى كان الشعب يأتمر بالليل وبالنهار ليخلع عنه نيرها ويسترد حريته منها . وقد ثقل عبء الضرائب التى فرضها على بلاده ذات الموارد الاقتصادية الضئيلة ليستمتع بها بلاطه المترف ويحقق بها مناهجه الضخم فى البناء الذى لا تطيقه الثروة القومية . وما لبث هـذا العبء الثقيل أن قصم ظهرها واستنزف جميع مواردها . وحاول هيرود أن يهدئ ثائرة شعبه بمختلف الوسائل ، ولكن جهوده كلها لم تجده نفعاً . من ذلك أنه نزل عن المتأخر من الضرائب عن السنين الماضية ، وأقنع رومة بأن تخفض مقـدار الجزية المفروضة على بلاده ، وحصل لليهود على مزايا فى البلاد الأجنبية ، وأنقذ البلاد إنقاذاً عاجلا من القحط وغيره من الكوارث ، وحافظ على الأمن والنظام فى الداخل وسلامة البلاد من الأعداء فى الخارج ، ونمى موارد البلاد الطبيعية . وفى عهده قضى على اللصوص وقطاع الطريق ، ونشطت التجارة ودب دبيب الحياة فى الأسواق والثغور . لكن الملك فى الوقت نفسه أثار غضب الشعب بفساد أخلاقه ، وقسوته العقاب ، وموت أرستبولس حفيد هركانس الثانى والوارث الشرعى لعرش البلاد غريقاً « مصادفة » فى الحمام ؛ وأخذ الكهنة الذين قضى على سلطتهم ، والذين عين هو رؤساءهم ، يأتمرون به ، وحتمد عليه الفرسيون لما بدا من أنه يعتزم صبغ بلاد اليهود بالصبغة اليونانية .

ذلك أن هيرود كان يحكم كثيراً من المدن التى كانت يونانية أكثر منها يهودية سكانها وثقافتها ؛ وقد تأثر بما تمتاز به الحضارة الهلنية من رقة وتنوع ؛ هذا إلى أنه لم يكن يهودياً فى أصله أو مؤمناً بهذا الدين عن عقيدة ؛ وقد دعاه هذا كله بطبيعة الحال إلى العمل على توحيد ثقافة مملكته ، وخلع مظاهر الروعة والجلال على حكمه بتشجيع أساليب الحياة ، والملابس ، والأفكار

والآداب ، والفنون اليونانية . وقد أحاط نفسه بالعلماء اليونان ، وعهد إليهم الإشراف على الشئون العليا فى الدولة ، وعين نقولاس الدمشقى ، وهو رجل يونانى ، مستشاره ومؤرخه الرسمى . وقد أنشأ فى أورشليم داراً فخمة للتمثيل ومدرجاً وزينهما بتماثيل لأغسطس وغيره من الوثنيين ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وأدخـــل فى بلاده الألعاب الرياضة والمباريات الموسيقية اليونانية ، وصراع المجتلدين الرومانى(١٠) ، وجعل أورشليم بمبان أخرى على طراز معمارى بدا للشعب أنه طراز أجنبى ، وأقام فى الأماكن العامة تماثيل يونانية أثارت دهشة اليهود وغضبهم بعريها كما أثار غضبهم عرى المصارعين فى الألعاب الرياضية . وقد شاد لنفسه قصراً أقامه بلا ريب على الطراز اليونانى وملأه بالذهب والرخام والأثاث الفخم الثمين ، وأحاطه بحدائق واسعة محتذياً فى ذلك حذو أصدقائه الرومان . وقد صدم مشاعر الشعب بقوله إن الهيكل الذى شاده زرب بابل منذ خمسة قرون كان ضيقاً ، وإنه يعتزم أن يهدمه ويقيم فى مكانه هيكلا أوسع منه . ولم يبال باحتجاج الأهلين ومخاوفهم ، وحقق رغبته بأن أقام المعبد الفخم الذى دمره تيتس فيما بعد .

وقد سوى على جبل موريا أرضاً تقرب مساحتها من سبعمائة وخمسين قدماً مربعة ، وأقام على أطرافها أروقة ذات سقف من خشب الأرز « ذات نقوش عجيبة » تعتمد على صفوف متعددة من العمد الكورنثية ، كل عمود من كتلة واحدة من الحجر تبلغ من الضخامة حداً يصعب معه على ثلاثة رجال أن يطوقوها بأذرعهم . وكان فى هذا البهو الرئيسى مظلات للصرافين ، الذين يبدلون نقود الأجانب بالنقود التى تقبل فى الهيكل . وكان فيها أيضاً المرابط التى يســتطيع الإنسان أن يشترى منها ما يريد أن يقربه من الحيوانات ، والغرف أو الأروقة التى يجتمع فيها الطلاب لتعلم اللغة العبرية والشريعة ، والمتسولون الصخابون الذين لا مفر من وجودهم فى كل مكان . ومن هـــذا « الهيكل الخارجى » يصعد بمجموعة من الدرج إلى فضاء داخلى مسور يحرم على غير اليهود أن يدخلوه . وكان

فى هذا الفضاء « بهو النساء » الذى « يأوى إليه الطاهرون من الرجال مع نسائهم »[١١] . ومن هذا الحرم الثانى يصعد العابد على مجموعة أخرى من الدرج ويمر خلال أبواب مصفحة بالفضة والذهب إلى « بهو الكهنة » حيث يقوم الهواء الطلق المذبح الذى تقرب فيه المحرقات إلى يهوه . وتلى هذه درج أخرى يمر الصاعد فوقها خلال أبواب من البرنز يبلغ ارتفاعها خمسا وسبعين قدماً واتساعها أربعا وعشرين ، تعلوها كرمة ذهبية ذائعة الصيت ، وتؤدى إلى بناء الهيكل الرئيسى الذى لا تفتح أبوابه إلا للكهنة وحدهم . وقد شيد هذا البناء كله من الرخام الأبيض على هيئة طباق تتدرج فى الصغر كلما علت ، وصفحت واجهته بالذهب ، وقسم داخله قسمين يفصلهما ستار مزركش يمتد فى عرض فراغه ، فيه من الألوان الأزرق والأرجوانى والقرمزى . وأمام هذا الستار كانت الماثلة(*) الذهبية ذات الفروع السبعة ، ومذبح البخور والمائدة وعليها « خبز التقدمة » غير المختمر الذى يقدمه الكهنة ليهوه ومن خلف الستار قدس الأقداس . وكان الهيكل القديم يحتوى على مبخرة ذهبية وعلى تابوت العهد ، ولكن هذا التابوت لم يكن يحتوى على « شىء قط » كما يقول يوسفوس . ولم تكن قدم الإنسان تطأ هذا المكان إلا مرة واحدة فى العام وذلك فى يوم الكفارة حين يدخله الكاهن الأكبر وحده . وقد استغرق بناء الأجزاء الرئيسية من هذا الصرح التاريخى ثمانية أعوام ، أما أعمال نقشه وتزيينه فقد ظلت قائمة ثمانين عاماً ، ولم تتم إلا قبيل مجيء فيالق تيتس[١٢] .

وكان الناس يفخرون بهذا الهيكل العظيم الذى كان يعد من عجائب العالم فى عهد أغسطس ، وكادوا لعظمته وبهائه يتجاوزون عن وجود عمده الكورنثية القائمة عند أبوابه ، وعن النسر الذهبى الذى يتحدى عقيدة اليهود

(*) الماثلة منارة المسرجة وقد استعرناها للشمعدان (المترجم)

فى تحريم الصور المنحوتة ، والذى كان يرمز عند مدخل الهيكل لرومة عدوة اليهودية وسيدتها . وكان اليهود العائدون إلى مدائن فلسطين ينقلون أنباء العمائر اليونانية الخالصة التى كان هيرود يجدد بها تلك المدائن ، وكيف ينفق أموال الأمة والذهب (كما تقول الشائعات) الذى كان مخبوءا فى قبر دواد[١٣] فى إنشاء مرفأ عظيم عند قيصرية ، وفى إهدائه بسخاء للمدن الأجنبية أمثال دمشق ، وبيلوس ، وبيروت ، وصور ، وصيدا ، وأنطاكية ، ورودس ، وبرجموم ، وأسپارطة ، وأثينة . واتضح لهم أن هيرود يريد أن يكون معبود العالم اليونانى لا ملك اليهود فحسب ، لكن اليهود كانوا يعيشون بدينهم ، وبإيمانهم بأن يهوه سينقذهم من الرق والظلم فى يوم من الأيام ؛ ومن أجل هذه كان انتصار الروح الهلنية على الروح العبرانية فى شخص حاكمهم نذيراً لهم بكارثة مدلهمة لا تقل عما حل بهم من الاضطهاد على يدى أنتيخس . ولذلك أخذوا يحيكون المؤامرات لقتل هيرود ، وكشف هو هذه المؤامرات وقبض على المشتركين فيها وعذبهم وقتلهم ، ولم يكتف بقتلهم وحدهم بل قتل أسرهم كلها فى بعض الأحيان[١٤] . وأطلق عيونه بين الشعب وتخفى ليتجسس بنفسه على رعاياه ، وكان يعاقبهم على كل كلمة تشتم منها رائحة العداء له[١٥] .

واستطاع أن يرد كيد أعدائه فى نحورهم عدا كيد أزواجه وأبنائه . وكان له من الأزواج عشر اجتمعت منهن تسع فى وقت واحد ، أما الأبناء فكان له منهم أربعون . وكانت مريمنى Mariamne زوجته الثانية حفيدة هركانس الثانى وأخت أرستبولس اللذين قتلهما هيرود . ويصفها يوسفوس بأنها امرأة عفيفة ، ولكنها فظة بعض الفظاظة بغريزتها ، تعامل زوجها بغطرسة وكبرياء لأنها رأته مغرماً بها غراماً يخضعه لها كأنه ملك يمينها . . . . وكانت فضلا عن فظاظتها تشهر بأمه وأخته علناً ، لأنهما من أصل حقير ، وتستطيل فى عرضهما إلى حد « امتلأت معه القلوب » فى بيت الملك « بغضاً وحقداً » . واستطاعت أخت

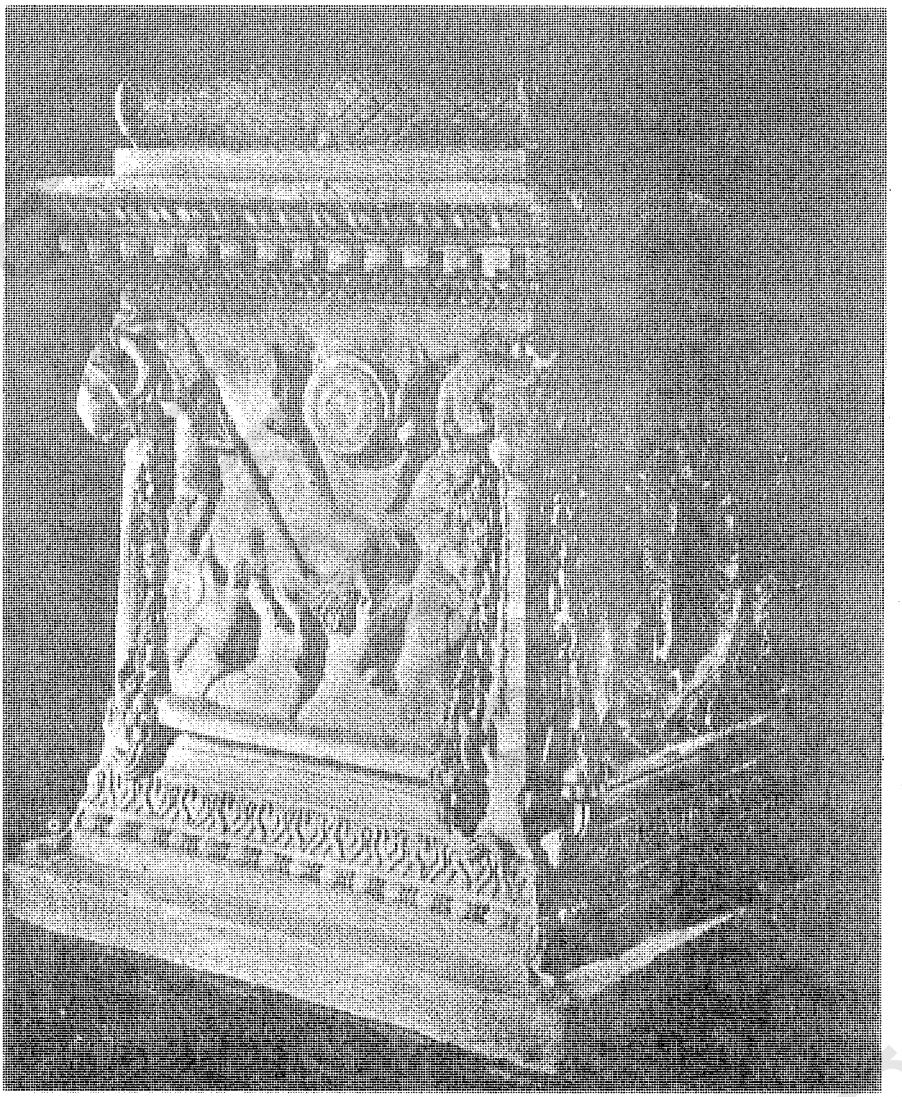

(شكل — ٩) مذبح وجد فى آسيا محفوظ فى متحف ترمى بروما

هيرود أن تقنعه بأن مريمنى تأتمر به لتدس له السم ، فوجه هذه التهمة لزوجته أمام أعضاء المحكمة ؛ فحكموا عليها بالإعدام ونفذ فيها الحكم . غير أن هيرود كان يرتاب فى جريمتها ، فجن جنونه من فرط الندم فترة من الزمان ، وأخذ يردد اسمها جهرة ، ويرسل خدمها ليستدعوها ، واعتزل المناصب العامة ، وآوى إلى الصحراء « يعذب فيها نفسه أشد العذاب » حتى جيء به إلى قصره محموماً شارد العقل . واشتركت أم مريمنى مع جماعة آخرين فى مؤامرة ترمى إلى خلعه ، ولكنه استرد قواه العقلية وعرشه فجاءة ، وأعدم المتآمرين . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم له أنتپاتر ابنه من زوجته الأولى أدلة تثبت وجود مؤامرة دبرها ولداه من مريمنى ألكسندر وأرستبولس ، فعرض الأمر على مجلس مؤلف من مائة وخمسين رجلا حكموا على الشابين بالإعدام (٦ ق . م) . ولم يمض على ذلك عامان حتى اتهم نقولاس الدمشقى أنتپاتر نفسه بأنه يتآمر على انتزاع العرش من أبيه . وأمر هيرود بابنه فجيء به إليه . « وأخذ يبكى ويذكر ما لقيه من النكبات على يدى أبنائه »[١٦] وطاف بقلبه طائف الرحمة ساعة من الزمان أمر فيها بسجن ولده .

وكانت قوى الملك الشيخ فى هذه الأثناء تنهار بتأثير الحزن والمرض ؛ فقد أصيب بداء الإستسقاء ، والقروح ، والحمى ، والتشنج ، والنفس الكريه الرائحة . وحاول أن يقتل نفسه بعد أن أحبط ما أحبط من المؤامرات لاغتياله ، ولكنه منع من تنفيذ قصده . ولما سمع أن أنتپاتر يحاول إرشاء حراسه ليطلقوا سراحه أمر هيرود بقتله ، ولم تمض على ذلك إلا خمسة أيام حتى مات هيرود نفسه (٤ ق . م) فى التاسعة والستين من عمره مكروها من جميع شعبه . ويقول أعداؤه عنه إنه « تسلل إلى العرش تسلل الثعلب ، وحكم حكم النمر ، ومات ميتة الكلب » .

الفصل الرابع

الشريعة وأنبياؤها

أوصى هيرود قبل وفاته أن تقسم مملكته بين أبنائه الثلاثة الباقين أحياء . فحكم فليب الإقليم الشرقى المعروف باسم بتانيا Bantanea ، الذى يحتوى على مدائن بيت سيده ، وكپتولياس ، وچراسا ، وفلدلفيا ، وبصرى . وحكم هيرود أنتپاس پيريا Peraea (الأرض الواقعة وراء نهر الأردن) ، والجليل فى الشمال حيث توجد أزدريلا ، وطبرية ، والناصرة . وكان نصيب أركلوس سمريتس ، وإيدوميا ، ويهوذا . وكان فى هذا القسم الأخير كثير من المدن والبلدان الشهيرة أمثال بيت لحم ، وحيرون ، وبير سبع ، وغزه ، وجدارا ، وإموس ، ويمنيا ، ويافا ، وقيصرية ، وأريحة ، وأورشليم . وكانت بعض المدن الفلسطينية تغلب عليها الصبغة اليونانية ، وبعضها تغلب عليه الصبغة السورية ، ويدل وجود الخنازير فى جدارا على وجود غير اليهود فيها . وكان الوثنيون هم الكثرة الغالبة فى المدن الساحلية ما عدا يافا ، ويمنيا فى « المدن العشر » القائمة على شاطئ نهر الأردن أما فى الداخل فيكاد السكان أن يكونوا كلهم من اليهود . وكان هذا الانقسام العنصرى ، غير المحبب إلى رومة ، مأساة فلسطين .

وإذا أردنا أن نفهم سبب اشمئزاز اليهود الصالحين من شرك المجتمع الوثنى وما كان يسوده من فساد خلقى فعلينا أن نرجع إلى زمن المتطهرين المتزمتين فى إنجلترا . لقد كان الدين عند اليهود مصدر شريعتهم ، ودولتهم ، وآمالهم ، وكانوا يظنون أنهم إذا رضوا أن يذوب هذا الدين فى نهر الهلنية الجارف كان هذا بمثابة انتحار لقوميتهم ؛ ومن ثم نشأت تلك البغضاء بين اليهود وغير اليهود التى جعلت تلك الأمة الصغيرة تقضى حياتها كلها فى نزاع عنصرى واضطراب سياسى ،

وحروب متقطعة ، يخبو نارها كلها تارة ثم تعود فتلتهب من جديد . يضاف إلى هذا أن يهود يهوذا كانوا يحتقرون أهل الجليل ويصفونهم بالمروق من الدين ، بينما كان أهل الجليل يحتقرون أهل يهوذا ويصفونهم بأنهم أرقاء وقعوا فى شراك الشريعة . هـذا إلى ما كان هناك من نزاع لا ينقطع بين أهل يهوذا والسامريين لأن هؤلاء يدعون أن يهوه لم يختر صهيون موطناً له بل اختار موطنه تل جرزيم الواقع فى بلادهم ، وإلى رفضهم جميع أسفار الكتاب المقدس ما عدا أسفار موسى الخمسة(١٥) . وكان الذى يجمع بين هـذه الأحزاب كلها هو كراهيتها لسيطرة الرومان ، التى كانت تتقاضى من البلاد ثمناً باهظاً نظير ميزة السلم غير المحببة إليهم .

وكان يسكن فلسطين وقتئذ نحو مليونين ونصف مليون من الأنفس يقيم منهم فى أورشليم وحدها نحو مائة ألف(١٩) . وكان معظمهم يتكلمون اللغة الآرامية ، وكان كهنتهم وعلماؤهم يفهمون العبرية ، أما الموظفون والأجانب ومعظم المؤلفين فكانوا يستعملون اللغة اليونانية . وكان معظم السكان يشتغلون بالزراعة ، يحرثون الأرض ويسقون الزرع ، ويعنون بالحدائق والكروم ، ويرعون الضأن . وكانت فلسطين فى حياة المسيح تنتج من القمح ما يكفى أهلها وتبقى منه فضلة تصدر منها إلى الخارج(٢٠) . وكان بلحها ، وتينها ، وعنبها ، وزيتونها ، ونبيذها ، وزيتها غالية الثمن يبتاعها الناس من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط ؛ وكان أهلها لا يزالون يعملون بالأمر القديم الذى يحتم عليهم أن يتركوا الأرض بوراً فى السنة السبتية(*) . وكانت الصناعات اليدوية وراثية فى أغلب الأحيان ، وكان الصناع ينتظمون عادة فى طوائف . وكان اليهود يعظمون العامل وكان معظم العلماء يعملون بأيديهم كما يعملون بألسنتهم . وكان الأرقاء أقل عدداً منهم فى أى بلد آخر من بلاد البحر الأبيض المتوسط . وازدهرت التجارة الصغرى فى البلاد ، ولكن عدد التجار اليهود ذوى الثراء والتجارة الواسعة كان لا يزال قليلا فيها .

(*) أى السنة السابعة التى تترك فيها الأرض للراحة . (المترجم)

وفى ذلك يقول يوسفوس : « لسنا أمة تجارية ، فنحن نعيش فى بلد (بلاد اليهود الشرقية) عديم السواحل ، ولا نميـــل إلى الاشتغال بالتجارة (الخارجية) » (٢٢) . وظلت الأعمال المالية ضيقة النطاق حتى ألغى هلل Hillel القانون الوارد فى سفر تثنية الاشتراع (الأصحاح الخامس عشر ١ — ١١) والذى يطلب فيه إلغاء الديون مرة كل سبع سنين ، وكان الهيكل نفسه مصرفهم القومى .

وكان فى داخل الهيكل بهو الجازيث ، ملتقى السنهدرين أو المجلس الأعظم المكون من كبراء إسرائيل . وأكبر الظن أن هذا المجلس قد نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق . م) ليحل محل المجلس الأول الوارد ذكره فى سفر العدد (الآية السادسة عشرة من الأصحاح الحادى عشر) والذى يسدى فيه النصح لموسى . وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادئ الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ثم أصبح من حقه فى عهد الرومان أن يختار أعضاؤه لعضويته عـــدداً متزايداً من الفرسيين ، وعدداً قليلا من فقهاء الشريعة الموسوية المحترفين (٢٣) . وكان أعضاؤه البالغ عددهم واحداً وسبعين عضواً يدعون أنهم أصحاب السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان على الأرض يعترفون لهم بهذه السلطة ؛ أما الهسمونيين ، وهيرود ، ورومة فلم يكونوا يعترفون لهم إلا بسلطانهم على من يخرج على الشريعة اليهودية من يهود بلادهم الأصلية ، فقد كان فى وسعهم أن يحكموا بالإعدام على من فيها من اليهود إذا ارتكبوا جريمة دينيه ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون تنفيذ الحكم إلا إذا وافقت عليه السلطة المدنية (٢٤) .

وكان فى الجمعية حزبان يتناعان السيطرة عليها ، كما يتنازعان السيطرة على معظم الجمعيات الأخرى ، أحدهما حزب المحافظين الذين يتزعمهم كبار الكهنة والصدوقيون(*) ، والذين سموا بهذا نسبة إلى صدوق مؤسس هـــذه الطائفة

(*) شيعة من اليهود الأرستقراط المتشككة عاشت فى أيام العهد الجديد لا تعتقد بالبعث ولا بالدار الآخرة . (المترجم)

وكان أعضاؤه وطنيين فى مبادئهم السياسية ، مستمسكين بدينهم ، ينادون بفرض التوراة أو الشريعة المكتوبة على الأمة اليهودية ، ولكنهم كانوا يرفضون ما عدا هذا من العقائد أمثال الأحاديث والقصص الشفوية التى يتناقلها رجال الدين ، ولتفاسير الطليقة التى يقول بها الفرسيون . وكانوا يرتابون فى خلود الروح ، ويمتنعون بامتلاك طيبات هذا العالم .

وكان الصدوقيون هم الذين سموا الفرسيين بهذا الإسم (البروشيم أى الانفصاليين) . ويقصدون بهذه التسمية أنهم قد فصلوا أنفسهم (كما انفصل البرهمة الصالحون) عن الذين تدنسوا بإهمال ما تفرضه عليهم طقوس التطهير[٢٥] . وكانوا هم خلفاء الكسديم أو نساك العصر المكابى الذين كانوا ينادون بوجوب التزام قواعد الشريعة الموسوية إلى أبعد الحدود . وقد عرفهم يوسفوس ، وهو منهم ، بأنهم « شيعة من اليهود يجهرون بأنهم أكثر استمساكا بالدين من سائر أبناء ملتهم ، وبأنهم أدق من غيرهم فى تفسير شرائعهم »[٢٦] . ولكى يصلوا إلى ما يبغونه من هذا التفسير الدقيق أضافوا إلى أسفار موسى الخمسة المكتوبة الأحاديث والروايات الشفوية المشتملة على التفسيرات والأحكام التى وردت على ألسنة معلمى الشريعة المعترف بهم . ويرى الفرسيون أن هذه التفاسير ضرورية لإزالة ما فى قوانين موسى من غموض ، ولبيان طريقة تطبيقها على الحالات الفردية ، ولتعديل حرفيتها فى بعض الأحيان حسب ضرورات الحياة وظروفها الدائمة التغير .

وقد جمع هؤلاء الناس بين الصرامة واللين ، فكانوا يخففون من صرامة الشريعة فى بعض المواضع كما فعلوا فى أوامر هلل الخاصة بالربا ، ولكنهم كانوا يحتمون على الناس أن يتقيدوا بالروايات الشفوية كما يتقيدون بالتوراة المنزلة نفسها . ذلك أنهم كانوا يحسون بأن لا نجاة لليهود من انقراضهم وامتصاص الشعوب الأخرى لهم إلا بإطاعة هذه الأوامر المسطورة والمتواترة . وإذ كان

الفرسيون قد ارتضوا أن يخضعوا لسلطان الرومان فقد كانوا يطلبون السلوى فيما يأملونه من الخلود الجثمانى والروحى . وكانوا يحيون حياة بسيطة ، يبتعدون فيها عن الترف ويندون به ، ويكثرون من الصوم ، ويعنون بالاغتسال ، ويتباهون من حين إلى حين باستمساكهم بالفضيلة مباهاة تضايق السامعين . ولكنهم كانوا يمثلون قوة اليهود الأخلاقية ، وقد نالوا تأييد الطبقات الوسطى وغرسوا فى نفوس أتباعهم إيماناً وأحكاماً أنقذتهم من الانحلال والتضعضع حين ألمت بهم المصائب . ولما أن خرب الهيكل (٧٠م) فقد الكهنة نفوذهم ، وأصبح الفرسيون عن طريق الأحبار هم المعلمين والرعاة لذلك الشعب الذى تشتت فى بقاع الأرض ولكنه لم تحق به الهزيمة .

وكانت أكثر شيع اليهود تطرفاً شيعة الإسينية التى أخذت تنواها عن الكسدية ، وأكبر الظن أن اسمها مشتق من اللفظ الكلدى اسشاى Aschai (المستحم) ، وأن أعضاءها أخذوا عقائدهم وعباداتهم من نظريات الزهاد ونظمهم التى كانت منتشرة فى العالم فى القرن الأول قبل المسيح . ولعلهم قد تأثروا أيضاً بآراء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس عبدة النار ، والفيثاغوريين ، والكلبيين ، وهى الآراء التى جاءت إلى أورشليم ملتقى الطرق التجارية فى غرب آسية . وكان عددهم فى فلسطين يبلغ أربعة آلاف ، وقد نظموا أنفسهم فى هيئة مستقلة عن غيرها ، وكانوا يستمسكون أشد الاستمساك بالشريعة المكتوبة وغير المكتوبة ويعيشون معاً عيشة العزاب الزاهدين ، يزرعون الأرض فى واحة إنجادى Engadi وسط الصحراء الواقعة غرب البحر الميت . وكانوا يسكنون منازل تمتلكها الجماعة التى ينتسبون إليها ، ويطعمون مجتمعين وهم صامتون ، وينتخبون زعماءهم بالاقتراع العام ، ويخلطون متاعهم ومكاسبهم فى بيت مال مشترك ، ويعملون بالشعار : « مالى ومالك ملك لك »[٢٧] :

ويقول يوسفوس إن حياة الكثيرين منهم كانت تطول أكثر من مائة عام ،

فضل طعامهم البسيط ، وحياتهم المنتظمة[٢٨] . وكان الرجل يلبس ثياباً من نسيج التيل الأبيض ، ويحمل معه فأساً صغيرة ليغطى بها فضلاته ، ويغتسل بعدها كما يغتسل البراهمة ، ويرى أن التبرز فى يوم السبب من أعظم الكبائر[٢٩] .

وكانت قلة منهم تتزوج وتعيش فى المدن العامرة ولكنهم كانوا يسيرون على القاعدة التى وضعها تولستوى وهى أنهم لايضاجعون أزواجهم إلا بقصد إنجاب الأطفال . وكان أعضاء هذه الشيعة يبتعدون عن جميع الملذات الجسمية ، ويسعون إلى الاتصال الصوفى بالله عن طريق التأمل والصلاة . وكانوا يأملون أن ينالوا بتقوى الله وبصيامهم واستغراقهم فى التأمل والتفكير علم الغيب وقوة السحر . وكانوا كمعظم معاصريهم يؤمنون بالملائكة ، والشياطين ، ويعتقدون أن المرض ناشئ من تسلط الأرواح الخبيثة على الآدميين ، فكانوا لذلك يحاولون طرد هذه الأرواح بالتعاويذ السحرية . ومن « عقيدتهم السرية » جاءت بعض « أجزاء القبلة »(*) . وكانوا ينتظرون نزول المسيح لينشئ على الأرض مملكة شيوعية سماوية (ملسوس شمايم) يتمتع الناس كلهم فيها بالمساواة ، ولا يدخلها إلا من كانت حياته تقية طاهرة[٣١] . وكانوا شديدى التحمس فى الدعوة إلى السلام ، يأبون أن يصنعوا شيئا من أدوات الحرب ؛ غير أنهم انضموا إلى غيرهم من الشيع اليهودية فى الدفاع عن مدينتهم وهيكلها حين هاجمت فيالق تيتس بيت المقدس والهيكل ، وظلوا يقاتلون حتى لم يكد يبقى منهم أحد . وإذا ما قرأنا وصف يوسفوس لعاداتهم وآلامهم وجدنا أننا قد دخلنا جو المسيحية :

« ومع أنهم قد عُذّبوا ، وحُرّقوا ، وقُطّعت أجسامهم ، ولاقوا جميع ألوان العذاب لكى يرغموا على التجديف فى حق صاحب شريعتهم ، أو أكل ما نهوا عن أكله ، فإنهم أبوا أن يفعلوا هذا أو ذاك ، أو أن

(*) تعليم تصوفى عند اليهود .

يتملقوا معذبهم ، أو تنحدر من أعينهم دمعة واحدة ، بل إنهم كانوا يتبسمون وسط آلامهم المبرحة ، ويضحكون ساخرين ممن يعذبونهم ، ويجودون بأرواحهم وهم مبتهجون ، كأنهم يتوقعون أن تعود لهم هذه الأرواح مرة أخرى » (٣٢) .

أولئك هم الصدوقيون ، والفرسيون ، والإسينيون ، أشهر الشيع الدينية اليهودية فى الجيل السابق لميلاد المسيح . أما الحكمون (Scribes) الذين يضمهم يسوع إلى الفرسيين فى كثير من الأحيان فلم يكونوا شيعة من شيع اليهود بل كانوا أبناء مهنة خاصة ؛ كانوا علماء متفقهين فى الشريعة ، يحاضرون فيها فى البيع ، ويعلمونها فى المدارس ، ويناقشونها فى المجتمعات العامة والخاصة ، ويطبقونها على الأحكام فى القضايا المختلفة . وكان عدد قليل منهم أحباراً ، وبعضهم صدوقيين ، وكثرتهم فرسيين . وكانوا فى القرنين السابقين لهلل كما كان الأحبار من بعده . كانوا هم فقهاء القانون فى بلاد اليهود ، وقد صارت فتاواهم القانونية ، التى صفاها الزمان ، وتداولتها الألسن ، وانتقلت بالسماع من المعلم إلى التلميذ ، صارت هذه الفتاوى جزءاً من الأحاديث الشفوية التى كان يعظمها الفرسيون كما يعظمون الشريعة المكتوبة ، وبفضل ما كان لهم من نفوذ وسلطان نمت شرائع موسى حتى ضمت آلافا من التعاليم المفصلة التى تواجه كل ظروف الحياة وأحوالها .

وأقدم شخصية واضحة معروفة بين معلمى القانون من غير رجال الدين هى شخصية هلل ، وحتى هذه الشخصية الواضحة تكاد تخفى معالمها فى ذلك النسيج الواهى من الخرافات التى حاكها حول اسمه الخلف المفتتن به . ويقول مؤرخوه إنه وُلد فى مدينة بابل (٧٥ ق م) من أسرة كريمة معروفة أخنى عليها الدهر . ثم جاء إلى أورشليم بعد أن اكتملت رجولته ، وأخذ يعول زوجته وأبناءه بالعمل اليدوى . وكان يؤدى نصف أجره اليومى ثمناً لقبوله فى المدرسة التى كان فيها أستاذان شهيران هما شمايا وأبتوليم يشرحان الشريعة . وعجز يوما من الأيام

عن أداء هذا الأجر ، فلم يسمح له بالدخول ، فتسلق العتبة السفلى لإحدى النوافذ « لكى يستمع إلى ألفاظ الإله الحى » . وتقول القصة إن جسمه تجمد من شدة البرد ، فسقط فوق الثلج ، وعثر عليه فى صباح اليوم الثانى وهو بين الحياة والموت(٣٣) . وصار هو فيما بعد حبرا محترما ، اشتهر بتواضعه ، وجلده ، ودماثة أخلاقه . وتقول إحدى القصص إن بعض الناس راهن على أن يغضب هلل وإنه خسر الرهان(٣٤) . وقد وضع ثلاث قواعد ليهتدى بها الناس فى حياتهم : حب الناس ، وحب السلم ، وحب الشريعة ومعرفتها . وسأله رجل يريد أن يهتدى أن يفسر الشريعة فيما لا يزيد من الزمن على الوقت الذى يستطيع أن يقف فيه على قدم واحدة ، فأجابه بقوله : « لا تفعل مع غيرك ما تكرهه لنفسك »(٣٥)(*) . وكان هذا القول صورة سلبية حذرة من تلك القاعدة الذهبية التى صاغها اللاويون فى صيغتها الموجبة من زمن بعيد .

ومن تعاليم هلل الأخرى قوله : « لا تحكم على جارك حتى تكون أنت فى مكانه »(٣٧) . وقد حاول أن يهدئ ثائرة الشيع المتنازعة بوضعه سبع قواعد لتفسير الشريعة . وكانت تفسيراته هى نفسها قائمة على الحرية والتسامح ، وأهم ما فيها أنه يسّر إقراض المال ، والحصول على الطلاق . وكان هو نفسه ناشراً للسلام لا مصلحاً .

وكان من نصائحه للشبان الثائرين فى عصره : « لا تخرجوا على الجماعة » . وقد قبل هيرود على أنه شر لا بد منه ، وعيّن فى عهده رئيساً للسنهدرين (٣٠ ق . م) ، وأحبته الأغلبية الفرسية حباً أبقاه رئيسا للمجلس الكبير إلى

(*) ويضيف التلمود إلى إجابة هلل ، العبارة الآتية : هذه هى الشريعة كلها ، وكل ما عدا ذلك شرح وتعليق عليها »(٣٦) .

يوم وفاته (١٠ م) . ثم جعل هذا المنصب من بعده وراثياً فى أسرته مدى أربعمائة عام تعظيما لذكراه .

وخص المجلس مكان الشرف الثانى فيه لمنافس هلل ، وهو الحبر شماى المحافظ . وكان يفسر الشريعة تفسيراً أدق وأضيق من تفسير هلل ، ولا يجيز الطلاق ، ويطالب بتطبيق التوراة تطبيقاً حرفيا ، لا يراعى فيه تغير الظروف . وكان انقسام المعلمين اليهود إلى محافظين وأحرار قائما قبل هلل بمائة عام وظل قائما حتى خرب الهيكل .

obeikandl.com

الفصل الخامس

الأمل الأكبر

تكاد الآداب اليهودية التى وصلت إلينا من ذلك العصر تكون كلها آداباً دينية . ذلك أنه قد بدا لليهودى المتمسك بدينه أن من الخطأ أن يكتب فى الفلسفة أو الأدب إلا إذا كان الغرض النهائى من هذه الكتابة أن يحمد الله ويمجد الشريعة ؛ كما كان يبدو له أن صنع التماثيل للإله إثم كبير وأن تزيين الهياكل بالفنون التشكيلية امتهان لها وانتهاك لحرمتها . ولا حاجة إلى القول بأن هناك بعض حالات استثنيت من هذا التحريم قد تكون قصة سوزانة الطريفة مثلا لها . وخلاصة هذه القصة أن كبيرين تنقصهما المعرفة التامة اتهما زوراً فتاة يهودية جميلة بسوء السيرة ، وأنها برئت بفضل براعة شاب يدعى دانيال فى مناقشة الشهود ، وقد وجدت هذه القصة طريقها إلى بعض طبعات سفر دانيال .

وقد يكون سفر يشوع بن سيراخ الذى نسميه سفر الحكمة مما كتب فى ذلك العهد المتأخر . وهو واحد من أسفار كثيرة تسمى الأبوكريفا — أى « الخفية » أو غير الموثوق بها والتى لا يعترف اليهود بها ضمن أسفار العهد القديم المنزلة . وهى ملأى بالجمال والحكمة ؛ ومن أجل هذا فهى غير جديرة بأن تطرد من صحبة سفر الشريعة وسفر أيوب . ونجد فى أصحاحاتها الأربعة والعشرين ما نجده فى الأصحاح الثامن من سفر الأمثال عن عقيدة الكلمة المجسدة : « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم : منذ الأزل مسحت ، منذ البدء منذ أوائل الأرض » . وبين عامى ١٣٠ ق . م ، ٤٠ . م نشر يهودى إسكندرى — أو عدد من اليهود الهلنستيين — سفر أمثال سليمان ، وهو سفر يحاول ، كما حاول فيلو ، أن يوفق بين اليهودية والأفلاطونية ، ويهيب باليهود الذين ينادون بالاندماج فى الثقافة اليونانية

أن يعودوا إلى الشريعة ، كل هذا فى نثر لا يقل فى جزالته وقوّته عن أى نثر آخر منذ عهد إشعيا . وأقلّ من هذا السِّفر قوة وجزالة سِفر مزامير سليمان (حوالى ٥٠ ق . م) ، ويكثر فيه التنبؤ بظهور منقذ لإسرائيل .

ويسرى هذا الأمل فى النجاة من رومة ومن العذاب الدنيوى على يد منقذ إلهى فى كل ما كتب فى هذا العصر من أدب يهودى إلا القليل النادر منه . واتخذ الكثير منه صورة رؤى تهدف إلى إيضاح الماضى والتسامح فيه بعرضه على صورة إعداد لمستقبل مجيد يظهره الله على لسان رسول من عنده . وكان كتاب دانيال الذى كتب فى عام ١٦٥ ق . م ليشجع إسرائيل على الوقوف فى وجه أنتيخس إبفانيس ، لا يزال ذائعا بين اليهود الذين لم يكونوا يعتقدون أن يهوه سيتركهم طويلا تحت سيطرة الوثنيين . واتخذ كتاب أخنوخ ، وهو فى أكبر الظن من عمل عدة مؤلفين عامى ١٧٠ ، ٦٦ ق . م صورة رؤى نزلت على الأب الأكبر الذى « سار مع الرب » فى سفر التكوين (الآية ٢٤ من الإصحاح الخامس) . ويقص هذا السفر سقوط الشيطان ومن معه ، وما أدى إليه ذلك من حلول الشر والألم فى حياة البشر ، ثم نجاة بنى الإنسان على يد مسيح ، وحلول مملكة السماء . وحوالى عام ١٥٠ ق . م شرع كاتب يهودى ينشر نبوءات سيبيلية صور فيها نبيات تنتصر لليهودية على الوثنية ، وتتنبأ بفوز اليهود النهائى على أعدائهم .

والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسية من بلاد فارس أو بابل[٣٨] . فالتاريخ كله والحياة كلها قد صوّرا فى الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة وقوى الظلمة الشيطانية ؛ ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ — سوشيانت أو مثراس — ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين . وكان يبدو للكثيرين من اليهود أن حكم رومة جزء من انتصار الشر القصير الأجل ، ولهذا كانوا ينددون بما فى حضارة « الكفار » من شراهة ، وغدر ، ووحشية ، ووثنية ، وما فى العالم الأبيقورى من « كفر بالله » وعبادة

للشهوات . وقد جاء فى سفر الحكمة أن المنافقين قالوا فى أنفسهم مفتكرين افتكاراً غير مستقيم :

« إن عمرنا هو يسير ومحزن ، ووفاة الإنسان ليس لها شفاء ، ولم يعرف قط المحلول من الجحيم ، لأننا ولدنا من لاشيء ، وبعد هذه نكون كأننا لم نكن لأن النسمة دخان فى أنوفنا . والنطق شرارة فى تحريك قلوبنا ، وإذا أطفئت بصير الجسم رماداً ، والروح ينسكب كالهواء المبثوث . واسمنا سينسى فى الزمان ، ولا يذكر أحد أعمالنا ، ويزول عمرنا كزوال أثر الغمام ، ويضمحل كالضباب الذى بدده شعاع الشمس وتثقله حرارتها ، لأن عمرنا ظل عابر وليس لأجلنا إبطاء لأنه أمر محتوم ولن يرده أحد . فهلم إذن نتمتع بالخيرات الموجودة ، ونستعمل الملذات فى البرية ما دام زمان الشبوبية ، فنمتلئ من الخمر الفائقة والطيوب ، ولا يفوتنا نسيم زهر الربيع . نتكلل بفتاح الورد قبـــل ذبوله ، ولا يكون مرج إلا يجوز عليه تنعمنا »(٣٩) .

ويقول صاحب هذا السفر إن ثلاثة من الأبيقوريين يداون بحجج باطلة . وإنهم يربطون عربتهم بنجم ساقط لأن اللذة شيء باطل زائل :

« لأن رجاء المنافق كغبار تحمله الرياح ، وكرغوة رقيقة تقدها الزوبعة ، وكدخان ينحل فى الرياح ، وكذكر ضيف مكث يوما واحداً وارتحل ؛ أما الصديقون فيحيون إلى الدهر ، وعند الرب ثوابهم ، وعند العلى اهتمامهم . فلهذا يتقلدون مملكة البهاء وتاج الكمال من يد الرب »(٤٠) .

وسيقضى على عهد الشر والإثم — كما تقول أسفار الرؤيا — إما بتدخل الله نفسه ، أو بإرساله إلى الأرض ابنه أو ممثله المسيح(*) . أو لم ينبئ به النبي إشعيا

(*) وقد وردت كلمة مسيح (وهى بالعبرية محسيح) فى كثير من المواضع فى العهد القديم . وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٢٨ ق . م) باللفظ اليونانى **christos** أى الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به .

قبل ذلك ذلك العهد بمائة عام إذ يقول : « لأنه يولد لنا ولد ونعطى إبناً وتكون الرياسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً مشيراً ، إلها قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام »(٤١) .

وكان كثيرون من اليهود يتفقون مع إشعيا (١١ : ١) فيما وصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ؛ ومنهم من يسمونه باسم ابن الإنسان كأخنوخ ودانيال ، ويصورونه بأنه سينزل من السماء . أما الفيلسوف صاحب سفر الأمثال والشاعر صاحب حكمة سليمان(٤٢) فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون فتصوروه الحكمة مجسدة التى هى أول شيء « قناها الرب » ، وهى الكلمة أو العقل (logos) التى لن تلبث أن يكون لها شأن عظيم فى فلسفة أفلاطون . ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً ، ولكن إشعيا تصوره فى فقرة من أروع فقراته بأنه : محتقر ومخذول من الناس ، رجل أوجاع ومختبر الحزن . . . لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها . . . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا . . . وبجبره شفينا . . . والرب وضع عليه إثم جميعنا . . . من الضغطة ومن الدينونة أخذ وفى جيله من كان يظن أنه قطع من أرض الأحياء . . . وهو حمل خطيئة كثيرين وشفع فى المذنبين »(٤٣)

بيد أنهم جميعا متفقون على أن المسيح سيخضع الكفار آخر الأمر ، ويحرر إسرائل(٤٤) ويتخذ أورشليم عاصمة له ، ويضم إليه الناس جميعا ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية(٤٥) . ويسود بعد ذلك « عصر طيب » تسعد به الدنيا بأجمعها فتكون الأرض كلها خصبة ، وتحمل كل حبة قدر ماكانت تحمله ألف مرّة ، ويصير الخمر موفوراً ، ويزول الفقر ، ويصبح الناس كلهم أصحاء ، مستمسكين بالفضيلة ، وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض(٤٦)

وكان بعض الناس يظنون أن هذا العهد الصالح ستتخلله عهود غير صالحة ؛

وأن قوى الظلمة والشر ستبذل جهدها الأخير للهجوم على هذه المملكة السعيدة ، وأن العالم سيحترق فى الفوضى واللهب ؛ وسيقوم الموتى فى « يوم الدينونة الأخير » ليحاسبوا أمام «قديم الأيام» (يهوه) أو أمام « ابن الإنسان » ، وسيكون له السلطان المطلق الأبدى على العالم بعد أن تجدد وصلح ، أى على مملكة الله ؛ وسيُلقى الأشرار وهم صامتون « فى الجحيم » ، أما الأخيار فسيُستقبلون فى دار النعيم الأبدى .

ولقد كانت الحركة الفكرية فى بلاد اليهود فى جوهرها مماثلة للحركة الفكرية الدينية الوثنية المعاصرة لها : شعب كان فيما مضى إذا فكر فى المستقبل يحصر تفكيره فيما سوف يؤول إليه مصيره القومى ؛ ثم فقد الآن ثقته بالدولة التى ينتمى إليها ، وأخذ يفكر فى النجاة الروحية الفردية . وكان الدين ذو الطقوس الخفية الغامضة قد بعث هذا الأمل فى صدور الآلاف المؤلفة من اليونان ، وفى بلاد الشرق الهلنستى وإيطاليا ؛ ولكن هذا الأمل أو الحاجة إليه لم يكونا فى بلد من البلاد أقوى مما كان فى بلاد اليهود . فلقد كان الفقراء أو المحرومون ، والمظلومون أو المحتقرون فى هذه الأرض يتطلعون إلى أن يرسل لهم الله من ينجيهم ويرفع عنهم نير الذل والعذاب . وتقول أسفار الرؤيا إن هذا المنقذ لن يطول غيابه وإنه حين ينتصر سيرتفع إلى الجنة كل العادلين ، حتى من كان منهم فى القبور ، ليتمتعوا فيها بالنعيم السرمدى . وكان القديسون الشيوخ ، أمثال شمعون ، وكانت النساء المتصوفات أمثال أنا ابنة فانيول يقضون حياتهم حول المعبد ، صائمين يترقبون ، ويصلون ، ويتضرعون لعلهم يرون هذا المنقذ قبل وفاتهم . وكان هذا الترقب يملأ قلوب الناس :

الفصل السادس

الثـــورة

ظل اليهود يكافحون قرونا طويلة ، ولما أن مات هيرودس الأعظم نبذ الوطنيون نصائح هلل السلمية وأعلنوا الثورة على خليفته أركلوس وعسكروا فى خيام حول المعبد : فقتل جنود أركلوس ثلاثة آلاف ، كان كثيرون منهم قد جاءوا إلى أورشليم ليحتفلوا بعيد الفصح (٤ ق . م) ، لكن الثوار عادوا إلى التجمع فى عيد العنصرة وتعرضوا فى هذه المرة إلى ما تعرضوا له من قبل من قتل ، وحرقت أروقة الدير ونهب الجنود ما فيه من الكنوز ، واستحوذ اليأس على الكثيرين من اليهود فقتلوا أنفسهم . ثم تألفت عصابات من الوطنيين فى الريف وهددوا حياة كل من يؤيد رومة ، ومن هذه العصابات واحدة تحت قيادة بوداس الجولونى استولت على صفورة عاصمة الجليل : وزحف قارس حاكم سوريا على فلسطين بعشرين ألفاً من رجاله ، وهدم مئات من بلدانها ، وصلب ألفين من الثوار ، وباع ثلاثين ألفاً من اليهود فى أسواق الرقيق . وذهب وفد من زعماء اليهود إلى رومة وطلب إلى أغسطس أن يلغى الملكية فى بلاد اليهود . فاستجاب أغسطس لطلبه وعزل أركلوس وجعل البلاد ولاية رومانية من الدرجة الثانية وعين عليها حاكما مسئولا أمام والى سوريا (٣٦) .

ونعمت هذه البلاد المضطربة بفترة صغيرة من السلام فى عهد تيبيريوس ، فلما جلس كليجيولا على العرش أراد أن يجعل عبادة الإمبراطور ديناً يوحد به أجزاء الإمبراطورية المختلفة فأمر أن تشمل كل العبادات قرباناً يقرب لصورته وأصدر تعليماته إلى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثاله فى الهيكل .

وكان اليهود فى عهد أغسطس وتيبيريوس قد خطوا نصف الطريق إلى

ترضية الأباطرة بأن كانوا يضحون لهوه باسم الإمبراطور ، ولكنهم كانوا ينفرون أشد النفور من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم ، وبلغ هذا النفور درجة دفعت آلافاً منهم — على حد قول الرواية المأثورة — إلى أن يذهبوا إلى حاكم سوريا ويطلبوا إليه أن يذبحهم وإن لم يرتكبوا ذنباً قبل أن ينفذ هذا المرسوم(٤٩) . وحلّ كلجيولا هذا المشكل بموته . وأقنع أجريا حفيد هيرودس الإمبراطور كلوديوس فعينه ملكاً على فلسطين كلها تقريباً (٤١) ، فلما مات أجريا انطلقت الفتنة مرة أخرى من عقالها ، وأعاد كلوديوس البلاد إلى ما كانت عليه فى عهد أغسطس وعين عليها حاكماً من قِبَل رومة (٤٤) .

وكان معظم الرجال الذين اختارهم معاتيقه ليشغلوا هذا المنصب عاجزين أو سفلة . ومن هؤلاء فليكس الذى عينه أخوه بلاس Pallas والذى « حكم بلاد اليهود » — كما يقول تاستس — « بقوة الملك وروح الرقيق »(٥٠) . وكان فستس Festus أعدل من فليكس ، ولكنه توفى فى أثناء هذه المحاولة . وجد ألبينس Albinus — إذ جاز لنا أن نصدق يوسفوس — فى النهب وفرض الضرائب ، وجمع ثروة طائلة بإطلاق المجرمين من السجون نظير أجر يتقاضاه منهم حتى « لم يبق أحد فى السجن إلا من لم يتقاض منه شيئاً »(٥١) . وسلك فلورس Florus — كما يقول هذا الكاتب صديق الرومان المعجب بهم — مسلك « الجلاد لا مسلك الحاكم » فنهب مدناً بأكملها ، ولم يكتف بأن يسرق هو نفسه ، بل تغاضى عن سرقات غيره إذا نال سهماً من الغنيمة . بيد أن هذه الأقوال يشتم منها رائحة العداوة الحزبية ؛ وما من شك فى أن الحكام هم الآخرون كانوا يشكون من أن اليهود شعب مشاكس ليس من السهل إخضاعه .

وتألفت عصابات من « المتحمسين » و « الفدائيين » ليحتجوا على هذا الفساد . وأقسم أعضاؤها أن يغتالوا كل يهودى خائن ، فكانوا يندسون وسط الجماعات فى الشوارع ويطعنون ضحاياهم من خلفهم ، ثم يختفون

بين الجاهير فى الفوضى التى تعقب عملهم هذا(٥٢) . ولما أن اغتصب فلورس سبع عشرة وزنة (٢٠٠٠ ر ٦١ ريال أمريكى) من كنوز الهيكل ، اجتمع أمامه جمهور غاضب يطلبون عزله ؛ وأخذ جماعة من الشبان يطوفون بالمدينة وبأيديهم سلات يطلبون الصدقات له لأنه يعانى مرارة الفقر . لكن فيالق فلورس بددت شمل المجتمعين ، ونهبت مئات من البيوت ، وذبحت ساكنيها ، وقبض على زعماء الفتنة ، وجلدوا وصلبوا . ويقول يوسفوس إن ٣٦٠٠ يهودى قتلوا فى ذلك اليوم(٥٣) . وأخذ شيوخ العبرانيين وأثرياؤهم يدعون الناس إلى الصبر ، وحجتهم فى هذا أن الثورة على هذه الإمبراطورية القوية ليست إلا انتحاراً قومياً ؛ أما الشبان والفقراء فكانوا يتهمون هؤلاء بخور العزيمة ومحاباة الظالمين .

• وانقسمت المدينة ، وانقسمت كل أسرة تقريباً بين هذين الحزبين ، فاستولى أحدهما على الجزء الأعلى من أورشليم ، واستولى الآخر على جزئها الأدنى ، وأخذ كلاهما يهاجم الآخر بكل ما يصل إلى يده من سلاح . ووصل الأمر فى عام ٦٨ إلى نشوب معركة دامية بين الحزبين انتصر فيها المتطرفون وقتلوا ١٢٠٠٠ يهودى من بينهم الأغنياء كلهم تقريباً(٥٤) ؛ وهكذا استحالت الفتنة ثورة . وأحاطت قوة من العصاة بالحامية الرومانية المعسكرة فى مسادا Massada ، وأقنعتها بأن تلقى سلاحها ، ثم قتلت رجالها عن آخرهم . وفى ذلك اليوم نفسه حدثت فى قيصرية عاصمة فلسطين مذبحة هائلة ذبح فيها غير اليهود من السكان عشرين ألفاً من اليهود ، وبيع آلاف غيرهم بيع الرقيق . وذبح غير اليهود من سكان دمشق عشرة آلاف يهودى فى يوم واحد(٥٥) . وقام اليهود المختفون بتدمير عدد كبير من المدن اليونانية فى فلسطين وسوريا ، وأحرقوا بعضها عن آخرها وقتلوا عدداً كبيراً من أهلها كما قتل منهم هم أيضاً كثيرون ؛ ويقول يوسفوس فى هذا : « وكان من المناظر المألوفة فى ذلك الوقت أن نرى المدن مملوءة بجثث الموتى . . . ملقاة فيها دون أن تدفن ، وأن نشاهد جثث الشيوخ إلى جانب

جثث الأطفال وبينها جثث النساء عارية من كل غطاء[٥٦] » . وقبل أن يحل شهر سبتمبر عام ٦٦ كان الثوار قد إستولوا على أورشليم وعلى فلسطين كلها تقريباً ؛ وخذل حزب السلم وفقد أنصاره ، وانضم معظم أعضائه إلى الثوار .

وكان من بين هؤلاء كاهن يدعى يوسفوس ، وكان وقتئذ شاباً في الثلاثين من عمره ، نشيطاً ، نابهاً ، وهب من الذكاء ما يستطيع به أن يحيل كل شهوة من شهواته فضيلة . وكلفه الثوار بتحصين الجليل ، فدافع عن حصنها جوتوباتا ضد قوات ڤسپازيان المحاصرة لها ، حتى لم يبق من حاميتها اليهودية على قيـــد الحياة غير أربعين جنديا اختبئوا معه في كهف من الكهوف . وأراد يوسفوس أن يسلم لجنود ڤسپازيان ، ولكن رجاله أنذروه بالقتل إن حاول التسليم . وإذ كانوا يفضلون الموت على الأسر ، فقد أقنعهم بأن يحددوا بطريق القرعة الترتيب الذى يقتل به كل منهم على يد من يليه ؛ ولما ماتوا جميعاً ولم يبق إلا هو وواحد منهم أقنعه بأن ينضم إليه في الاستسلام للعدو . وقبيل أن يرسلا إلى رومة مكبلين بالأغلال تنبأ يوسفوس أن ڤسپازيان سيصبح إمبراطورا ، فأطلقه ڤسپازيان من الأسر ، وقربه إليه شيئاً فشيئاً وجعله ناصحا أمينا له في حربه ضد اليهود . ولما سافر ڤسپازيان إلى الإسكندرية صحب يوسفوس تيتس في حصار أورشليم .

وكان اقتراب الفيالق الرومانية إيذانا بضم صفوف اليهود وتأليفهم وحدة حانقة متعصبة وإن جاء ذلك بعد فوات الأوان . ويقول تاسيتس إن ٦٠٫٠٠٠ من الثوار تجمعوا في المدينة ؛ وإن « كل من يستطيع الانخراط في سلك الجندية قد تسلح ونزل إلى الميدان » ، وإن الروح العسكرية في النساء لم تكن أقل منها في الرجال[٥٧] . ونادى يوسفوس من بين صفوف الرومان أهل المدينة المحاصرين إلى الاستسلام ، ولكنهم اتهموه بالخيانة ، وحاربوا إلى آخر رجل

فيهم . وحاول اليهود بعد أن نفدت مؤونتهم اختراق الصفوف للحصول على الطعام . فأسر الرومان آلافا منهم وصلبوهم ، ويقول يوسفوس إن « هؤلاء بلغوا من الكثرة حدا لم تتسع معه الأرض لإقامة الصلبان ، ولم يوجد من الصلبان ما يكفى لأجسامهم » . وازدحمت شوارع المدينة بجثث الموتى فى المراحل الأخيرة من الحصار الذى دام خمسة أشهر . وكانت جماعات من النهابين تطوف بالموتى وتقطع أجسامهم وتنهب مالهم ، ويقال إن ١١٦٫٠٠٠ جثة ألقيت من فوق أسوار المدينة وإن بعض اليهود بلعوا قطعا من الذهب وخرجوا خلسة من أورشليم ، وإن الرومان أو السوريين الذين قبضوا عليهم شقوا بطونهم أو بحثوا فى برازهم ليحصلوا على ما ابتلعوه من الذهب(٥٨). ولما استولى تيتس على نصف المدينة عرض على الثوار شروطا ظنها لينة ، فلما رفضوها أضرمت فرق الحراقين الرومان النار فى الهيكل فلم يلبث هذا الصرح العظيم ، وكان معظمه مشيداً من الخشب ، أن احترق بأكمله . وقاتل الباقون من المدافعين عن المدينة قتال الأبطال ، فخورين كما يقول ديو بموتهم فى حرمه(٥٩) . فمنهم من قتل بعضهم بعضاً ، ومنهم من ألقوا بأنفسهم على سيوفهم ، ومنهم من قفزوا فى اللهب . ولم يرحم المنتصرون أحداً ، بل قتلوا كل من استطاعوا أن يقبضوا عليه من اليهود . وقد قبض على ٩٧٫٠٠٠ وبيعوا فى أسواق الرقيق ، ومات كثيرون منهم فى المجتلدات بعد أن سيقوا مرغمين إلى الألعاب التى أقيمت ضمن احتفالات النصر فى بيروت ، وقيصرية ، وفلبای ، وروما . ويقدر يوسفوس عدد من هلك من اليهود فى هذا الحصار وما أعقبه من حوادث بمليون ومائة وسبعة وتسعين ألفاً . أما تاستس فيقدرهم بستمائة ألف (٧٠ م(٦٠)) .

ودامت المقاومة فى أماكن متفرقة حتى عام ٧٣ ، ولكن تدمير الهيكل كان فى واقع الأمر نهاية الفتنة ونهاية الدولة اليهودية . وصودرت أملاك الذين اشتركوا فيها وبيعت ، وكادت الدولة اليهودية أن تخلو من اليهود .

وعاش من بقى منهم فيها عيش الكفاف . وكان أفقر فقرائهم يرغم على أن يؤدى للهيكل الوثنى فى رومة نصف الشاقل الذى كان العبرانيون الصالحون يؤدونه فى كل عام لصيانة هيكل أورشليم . وألغيت مناصب كبار الكهنة والسنهدرين : واتخذت اليهودية الصورة التى احتفظت بها إلى أيامنا هذه : صورة دين بلا معبد مركزى ، ولا كهنوت مسيطرين عليه ، ولا قرابين . واختفت طائفة الصدوقيين ، وأصبح الفرسيون والأحبار زعماء شعب لا وطن له ، لم يبق له إلا معابده .

obeikandl.com

الفصل السابع

التشتيت

لقد كانت هجرة مليون من اليهود أو تشريدهم مما عجل انتشارهم فى جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط . ومن أجل هذا أرخ علماؤهم تشتيتهم من الوقت الذى دمر فيه هيرودس الهيكل . ولقد رأينا أن هذا التشتيت بدأ بالسبي أو الأسر البابلى قبل ذلك الوقت بستة قرون وأنه تجدد باستيطانهم فى الإسكندرية . وإذ كانت كثرة التناسل مما يحتمه الدين اليهودى والشريعة اليهودية على الصالحين المتقين ، وإذ كان وأد الأطفال محرما عليهم. فإن انتشار اليهود كانت له أسباب من علم الأحياء نفسه فضلا عن الأسباب الاقتصادية ؛ وكان لا يزال لليهود بعض الشأن القليل فى تجارة العالم . وقد قال عنهم استرابون قبل سقوط أورشليم بخمسين عاماً قولا لا يخلو من المغالاة التى أملتها عليه نزعته المعادية للسامية : « يصعب على الإنسان أن يجد فى العالم المعمور كله مكاناً واحداً خالياً من هذا الجنس من الناس ، أو غير مملوك له »[٦١] . ووصف فيلو قبل التشتيت بعشرين عاماً « القارات . . . الملأى بالمحلات اليهودية ومثلها ... الجزائر وبلاد بابل كلها تقريباً »[٦٢] . وما وافى عام ٧٠ من بعد الميلاد حتى كان آلاف من اليهود فى سلوقية على نهر دجلة وفى غيرها من مدائن پاوثيا . وكانوا كثيرى العدد فى بلاد العرب ، ومنها عبروا البحر إلى بلاد الحبشة ، وكانوا فى سوريا وفينيقية وكانت لهم جالية كبيرة فى طرسوس ، وأنطاكية ، وميليتس ، وإفسوس ، وسرديس ، وأزمير . وكانوا أقل من ذلك بعض الشيء فى ديلوس ، وكورنثة ، وأثينة وفاپاى وبيريه ، وسلانيك . أما فى غرب البحر الأبيض فكانت هناك جماعات من اليهود فى قرطاجنة ، وسرقوسة ، وپتيولى ، وكپوا ، وپمپي ، وروميه ، وحتى

ڤنوزيا موطن هوراس نفسها لم تكن تخلو من اليهود . وفى وسعنا أن نقدر عدد اليهود فى الإمبراطورية الرومانية إجمالا بنحو سبعة ملايين أى نحو ٧٪ من سكانها وضعفى نسبتهم إلى سكان الولايات المتحدة الأمريكية فى هذه الأيام(٦٣) .

وقد أثاروا بكثرة عددهم ، ولباسهم ، وطعامهم ، وختانهم ، وفقرهم ، وطمعهم ، ورخائهم ، وعزلتهم ، وذكائهم ، ونفورهم من الصور وتشددهم فى مراعاة السبت رغم ما يسببه ذلك من العنت لهم ، أثاروا بهذا كله حركة عداء للسامية تختلف من المزاح فى الملاهى ، والسخرية بهم فى أفوال چوڤنال وتاستس ، إلى ذبحهم فرادى فى الشوارع ، وقتلهم زرافات فى المذابح المدبرة . وقد نصب أپيون الإسكندرى نفسه مدافعا عن هذه الهجمات ، ورد عليه يوسفوس برسالة صارمة شديدة اللهجة(*) .

وسافر يوسفوس مع تيتس إلى رومة بعد سقوط أورشليم ، وصحب قاهر بنى جنسه فى موكب نصر عرض فيه أسرى اليهود والمغانم اليهودية . ومنحه ڤسپازيان حق المواطنية الرومانية ، ووظف له معاشا وخصص له مسكنا فى قصره وأقطعه أرضا خصبة فى بلاد اليهود(٦٥) . وتسمى يوسفوس نظير هذا باسم آسره ڤسپازيان ، وهو فلافيوس ، وكتب تاريخ حرب اليهود (حوالى عام ٧٥) ، ليدافع عن أعمال تيتس فى فلسطين ، ويبرر انشقاقه على بنى جنسه ، ويثبط عزائم اليهود إذا ما فكروا فى الخروج على رومة مرة أخرى بإظهاره قوتها وبأسها . واشتد إحساسه بعزلته فى شيخوخته فألف كتاباً فى قدم اليهود أراد به أن يستعيد عطف بنى جنسه بأن يصور لغير اليهود ما قام به هذا الشعب من جلائل الأعمال ، ويصف عاداتهم وأخلاقهم . وقصصه فى هذا الكتاب واضح قوى ،

(*) وقد ابتهج يوسفوس حين علم أن قرحة قد اضطرت أپيون إلى الاختفاء .

ووصفه لهيرودس الأكبر لا يقل إمتاعاً عن وصف أفلوطرخس ، ولكن تحيزه والغرض الذى يكتب من أجله يفسدان موضوعية الكتاب . وقد تطلب **قدوم اليهود** عدة سنين وأنهك قوى المؤلف ، فلم يستطع أن يتمه ، وكتب أمناء سره الكتب الأربعة الأخيرة من العشرين كتاباً التى يتألف منها هذا المجلد الضخم مستعينين على كتابتها بمذكراته(٦٦) . ولم يكن يوسفوس قد جاوز الخامسة والستين من عمره حين نشر الكتاب ، ولكنه كان قد ضعفت قواه متأثرة بحياة المغامرات ، والجدل ، والعزلة الأخلاقية .

واستطاع اليهود أن يعيدوا بالتدريج بناء حياتهم الاقتصادية والثقافية فى فلسطين . وبينما كان الحصار مضروباً على أورشليم فر من المدينة تلميذ شيخ من تلاميذ هلل يدعى يوهنان بن زكاى لأنه خشى أن يبيد المعلمون كلهم فى المذبحة فلا يبقى من ينقد الأحاديث الشفوية . ولما خرج من المدينة أقام مجمعا علميا فى كرم عند يبنى أو يمنيا قرب شاطئ البحر الأبيض المتوسط . ولما سقطت أورشليم نظم يوهنان سنهدرينا جديداً فى يمنيا ، ولم يؤلفه من الكهنة ، والسياسيين ، والأثرياء بل ألفه من الفرسيين والأحبار أى معلمى الشريعة . ولم يكن لهذا المجلس المعروف باسم **بيت الدين** أية سلطة سياسية ، ولكن معظم يهود فلسطين كانوا يعترفون بسلطانه فى جميع الشئون المتعلقة بالدين والأخلاق . وكان الحاخام الذى يختاره المجلس رئيسا له يعين الموظفين الإداريين المشرفين على الجماعات اليهودية ، وكان من حقه أن يخرج من حظيرة الدين من لا يرضى عنهم من اليهود . وكان من أثر النظام الصارم الذى فرضه الحاخام جماليل الثانى (حوالى سنة ١٠٠ م) أن توثقت الرابطة بين أعضاء المجلس أولا ، ثم بين يهود يمنيا ، ثم بين يهود فلسطين كلها فيما بعد . وحدث فى أيامه أن أعيد النظر فى التفسيرات المتناقضة للشريعة وهى التفسيرات التى نقلها هلل وشماى ، ثم أخذ الرأى عليها ، وكانت النتيجة أن قبلت معظم

(شکل – ۱۰) قوس تراجان فی بنفنتو

تفسيرات هلل وفرض على اليهود جميعهم أن يعملوا بها .

وإذ كانت الشريعة قد أصبحت وقتئذ الرابطة القوية التى لا غنى عنها والتى تؤلف بين اليهود المشتتين الذين لا تؤلف بينهم دولة ، فقد أصبح تعليم هذه الشريعة أهم عمل تقوم به الكنائس فى جميع البلاد التى شتت فيها اليهود . وحل المجمع محل الهيكل ، كما حلت الصلاة محل التضحية ، وحل الربان محل الكاهن ، وأخذ الشراح (التنايم) يفسرون مختلف القوانين اليهودية المنقولة بطريق السماع (هلاكا) ، وكانوا يؤيدون شروحهم فى العادة بعبارات يقتبسونها من الكتاب المقدس ، يضيفون إليها قصصا وعظات أو غيرها من المواد (هجاداً) ويوضحونها بها فى بعض الأحيان . وأشهر هؤلاء التنايم هو الربان عكيبا بن يوسف . وقد انضم هذا الربان ، وهو فى سن الأربعين ، إلى ابنه البالغ من العمر خمس سنين ، وذهبا معاً إلى المدرسة فتعلم القراءة ، واستطاع فى زمن قليل أن يتلو عن ظهر قلب جميع أسفار موسى . وبعد دراسة دامت ثلاثة عشر عاما افتتح له مدرسة تحت شجرة تين فى قرية قريبة من يمنيا . وقد كانت حماسته ، ومثاليته ، وشجاعته ، وفكاهته ، بل وتعسفه الشديد سبباً فى التفاف كثيرين من الطلاب حوله . ولما جاءت الأنباء فى عام ٩٥ ، أن دومتيان سيتخذ إجراءات جديدة ضد اليهود ، اختير أكيبا وجماليل واثنان آخران من اليهود ليتصلا اتصالا شخصيا بالإمبراطور . وبينما هم فى رومة إذ توفى دومتيان . واستمع نيرفا إلى رسالتهم وأظهر العطف على مطالبهم ، وألغى الضريبة المفروضة على اليهود لإعادة بناء رومة .

ولما عاد أكيبا إلى يمنيا أخذ على عاتقه أن يقوم بذلك العمل الشاق الذى قضى فيه بقية حياته ونعنى به تقنين الهلاكا ، وأتم هذا العمل من بعده تلميذه الربان مير Meir وخليفتهما الأب يهوذا (حوالى ٢٠٠ م) . وقد بقيت الهلاكا حتى فى هذه الصورة المصنفة جزءاً من الأحاديث الشفوية ، يتناقلها العلماء والحفاظ المحترفون جيلا بعد جيل — فكانوا هم النصوص الحية للشريعة الموسوية .

وكان فى الطرق التى جرى عليها أكيبا من السخف بقدر ما فى النتائج التى وصل إليها من الصحة . وقد فسر الشريعة المسطورة تفسيراً عجيبا إذ جعل لكل حرف من حروفها معنى خفيا ثم استمد من هذا التفسير مبادئ حرة ؛ ولعل الباعث له على هذا التفسير ما لاحظه من أن الناس لا يقبلون الشىء المعقول إلا إذا كان فى صورة غامضة خفية . وعن أكيبا أخذ هذا التنظيم وذاك العرض لعلمى الدين والأخلاق اللذين انتقلا عن طريق التلمود إلى ابن ميمون ، ثم انتقلا آخر الأمر إلى أساليب الفلاسفة المدرسيين .

ولما بلغ سن التسعين وضعفت قواه وأصبح من الرجعيين ألفى نفسه ، كما كان فى أيام شبابه ، محوطا بالثورة من كل الجوانب . ذلك أن يهود قورينة ، ومصر ، وقبرص ، وأرض الجزيرة ، رفعوا لواء الثورة على روما مرة أخرى فى عامى ١١٥ — ١١٦ ، وأخذ اليهود يقتلون غير اليهود ، وهؤلاء يقتلون أولئك حتى أصبح التقتيل هو العادة المألوفة فى تلك الأيام . ويقول ديو إن ٢٢٠,٠٠٠ قتلوا فى قورينة ، و٢٤٠,٠٠٠ فى قبرص . وتلك أرقام لا يقبلها العقل بطبيعة الحال ، ولكنا نعرف أن قورينة لم تنتعش قط بعد هذا التخريب ، وأن اليهود ظلوا عدة قرون بعد ذلك الوقت لا يسمح لهم قط بدخول قبرص . ثم أخمدت الفتن ، ولكن من بقى من اليهود ظلوا محتفظين بأملهم القوى فى ظهور مسيح يعيد بناء الهيكل ويعيدهم هم ظافرين إلى أورشليم . وأشعل الرومان ، بحمقهم وبلاهتهم ، نار الثورة من جديد . ذلك أن هدريان أعلن فى عام ١٣٠ أنه يعتزم بناء ضريح لجوبتر فى فى مكان الهيكل ، ثم أصدر فى عام ١٣١ مرسوماً بتحريم الختان وتعليم الشريعة اليهودية علنا[٦٧] . وكانت آخر وقفة وقفها اليهود فى التاريخ القديم لاستعادة حريتهم فى عام ١٣٢ بزعامة شمعون باركوشيبا الذى ادعى أنه هو المسيح . وبارك أكيبا هذه الثورة رغم أنه كان طول حياته يدعو إلى السلم ، وذلك حين اعترف باركوشيبا أنه هو المنقذ .

وظل الثوار ثلاث سنين مستبسلين فى قتال الفيالق الرومانية حتى هزموا آخر الأمر بعد أن نفد طعامهم وعتادهم . ودمر الرومان ٩٨٥ مدينة فى فلسطين وذبحوا ٥٨٠٫٠٠٠ يهودى ويقال إن الذين ماتوا من الجوع والمرض والحريق كانوا أكثر من هذا العدد . وخربت بلاد اليهود كلها تقريباً ، وخرّ باركوشيبا نفسه صريعاً أثناء دفاعه عن بيثار . وكان الذين بيعوا من اليهود فى أسواق الرقيق من الكثرة بحيث انخفض ثمن الواحد منهم حتى ساوى ثمن الحصان . واختبأ آلاف منهم فى سراديب تحت الأرض مفضلين ذلك على الأسر ؛ ولما أحاط بهم الرومان هلكوا من الجوع واحداً بعد واحد ، وكان الأحياء منهم يأكلون جثث الموتى(٦٨) .

وأراد هدريان أن يقضى على ما فى اليهودية من رجولة وقدرة على الانتعاش ، فلم يكتف بتحريم الختان بل حرم معه الإسبات والاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو إقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علناً(٦٩) . وفرضت ضريبة شخصية جديدة أكبر من الضريبة السابقة على جميع اليهود ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس إلا فى يوم واحد محدد فى العام يسمح لهم فيه بالمجىء إلى دمشق ليبكوا أمام خرائب الهيكل . وقامت فى مواضع أورشليم مدينة إيليا كپتولينا الوثنية ، وشيد فيها ضريحان لجوپتر وڤينوس ، وساحات للرياضة وملاهٍ وحمامات ، وحل مجلس يمنيا وحرم على أعضائه الاجتماع ، وأجيز لمجلس عاجز أصغر منه أن يجتمع فى لدا Lydda . أما تعليم الشريعة جهرة فقد منع منعاً باتاً ، وأنذر كل من خالف ذلك بالإعدام ، وأعدم بالفعل عدد من الأحبار الذين خالفوا . وأصرّ أكيبا ، وكان وقتئذ فى الخامسة والتسعين من عمره ، على أن يعلم تلاميذه ، فزج فى السجن ثلاث سنين ، ولكنه لم ينقطع عن التعليم فى سجنه ، فحوكم ، وأدين ، وأعدم وهـو ينطق بالعقيدة اليهودية الأساسية : « اسمع ، يا إسرائيل ، الرب إلهنا ، والرب واحد »(٧٠) .

وظل اليهود قروناً عدة يعانون آثار النكبة التى حلت بهم بعد ثورة

باركوشيبا ، وإن كان أنطونينس پيوس قد خفف من صرامة مراسيم هدريان ، ودخلوا من هذه اللحظة فى دور الكهولة ، وتخلوا عن كل العلوم الدنيوية ما عدا الطب ، ونبذوا الهلنستية على اختلاف صورها ، ولم يتلقوا السلوى أو الوحدة إلا من أحبارهم ، وشعرائهم الصوفيين وشريعتهم . ولسنا نعرف شعباً آخر قد طال نفيه كما طال نفى اليهود ، أو عانى من الأهوال مثل ما عانوا . لقد حرم عليهم أن يدخلوا المدينة المقدسة ، وأرغموا على تسليمها للوثنية ثم للمسيحية ، وشرّدوا فى كل ولاية من ولايات الدولة الرومانية وإلى ما وراء حدود تلك الدولة ، وضُربت عليهم الذلة والمسكنة ، ولم يجدوا لهم صديقاً حتى بين الفلاسفة والقديسين ، فابتعدوا عن المناصب العامة وعكفوا فى عزلتهم على الدرس والعبادة ، واستمسكوا أشد الاستمساك بأقوال علمائهم ، وأخذوا يتأهبون لكتابتها آخر الأمر فى تلمود بابل وفلسطين . وهكذا اختبأت اليهودية فى ظلمات الخوف والفزع ، بينما كانت وليدتها المسيحية تخرج لفتح العالم وسيادته .